الإنسان والحيوان في محكمة الجان

د. مصطفى العلواني*

منذ سنوات وأنا أحاول الكتابة عن هذا الموضوع الذي تعرض له اخوان الصفا في الرسالة الثامنة من رسائلهم الموسومة ـ في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها ـ . وكلما هممت بذلك صرفني عنها تهيبي لها لصعوبة الموضوع وتعقيده ولكونه ينطوي على أكثر من جانب وبخاصة ما يتعلق بعقائد اخوان الصفا وأفكارهم وآرائهم المبثوثة من خلال عرضهم للنصوص والحوار الذي يجري على لسان الحيوان تارة وعلى لسان الانسان تارة أخرى وعلى لسان الجن تارة ثالثة : ولكن بعد قراءات عديدة عن اخوان الصفا أمكن لي أو قد سوغ لي أن أدخل عليهم مجالسهم وأفيد وأستمتع بما تفتقت عنه أفكارهم وتنظيراتهم في الجوانب المتعددة للكون والحياة والانسان والعقائد ..

ولكن رغم هذا وذاك فانني أعتذر للقارىء عن دخولي مجالا غير مجالي والكتابة في طريق وعر لا يسلم فيه الانسان من الزلل والخطأ والانزلاق غير انه مما يشفع لي تقديري لهم وتقديسهم للعلم والمعرفة ولما أسهموا فيه من بناء حضاري مرموق . ولعله من الأجدر لي أن أعترف في البداية انني لم أخالطهم بعمق ولم أستجلهم ببعد فأنا بالنسبة لبستانهم كعابر سريع لهذه البستان استطاع أن يقطف بعض الثمر من الأشجار المتنوعة وهو على خيفة وترقب وعجل .

لن أتعرض لاخوان الصفا من حيث التعريف والعصر فهم معروفون وأشهر من أن يعرفوا . وعلى ذلك فسأدخل الى الموضوع دخولا مباشراً دون تعريف بهم .

★ دكتور في علم السكان وباحث في التراث العربي .



وفحوى رسالتهم هـذه أن سفينة يركبها جماعة من الانس طرحتهم الريـاح العاصفة في وقت من الزمن في جزيرة صاغون وسط البحر الأخضـر مما يلي خط الاستواء وكانت الجزيرة داراً لمملكة من الجـان تدعى ـ مردان ـ وكانت هـذه الجزيرة تزخر بأشجار الفاكهة والثمـاروالمياه العذبة وفيها أصناف من البهـائم والانعام والطيور والسباع متآلفة بعضهامع بعض مستأنسة غير متنافرة • استطاب هؤلاء القوم المقام في الجزيرة واستوطنوا بها حيث أقاموا البنيـان والسكن فقـد كانوا من التنوع والاختصاص ما يساعد على اقامة مجتمع صغير • ثم أخذ هـؤلاء الناس يتعرضـون للبهائم والأنعـام كماكانوا يفعلون في بلدانهم فنفرت منهم تلك البهائم وهربت فجدوا في طلبها بأنـواع من الحيل واعتقدوا فيها أنها عبيد لهـم هربت وخلعت الطاعة وعصت فلما علمت تلك البهائم والأنعام هذا الاعتقاد منهـم جمعت زعماءها وخطباءهـا وذهبت الى بيراست الحكيم وشكت اليه ما لقيت مـن جور بني آدم فبعث ملك الجن رسولا الى أولئك القوم ودعاهم الى حضرته فذهبت طائفة من أهـل ذلك المركب الى هنـاك وكانوا نحواً من سبعين رجلا من بلـدان شتى •• فلما بلغـه قدومهم أنزلهم ثـم أوصلهم الى مجلسه بعد ثلاثة أيام وكان بيراسيت الحكيم عادلا كريماً منصفاً سمحاً يقرىء الأضياف ويؤوي الغرباء ويرحم المبتلى ويمنع الظلم ويأمـر بالمعـروف وينهى عن المنكر ولا يبتغي بذلك غير وجه الله تعالى ومرضاتـه • عقدت المحكمـة وحضرها وفـد الأنس ووفد الحيـوان وجلس بيراسيت الحكيم ينظر الى الأمـر ومن حوله حكماء الجن ورؤساؤهم •

دارت جلسات المحكمة وتبادل الأطراف التهم والدفوع وملك الجـن يؤيد أو يخالف ويصدر الأحكام •

الغرض من الرسالة ؟

يبين اخوان الصفـا الغرض من الرسالة في آخر فقرة من فقراتها حيث يقولون ـ ثم اعلم أيها الأخ انا قد بينا في هـذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب ولا تظـن بنا ظن السوء ولا تعد هذه الرسالة مـن ملاعبة الصبيان ومخارفـة الاخـوان إذ عادتنا جارية على أن نكسو الحقائق ألفاظاً وعبارات واشارات كي لا يخرج بنـا عما نحن فيـه وفقـكم الله الى قراءتهـا واستماعها وفهم معانيهـا وفتح قلوبـكم



وشرح صدوركم ونور بصائركم بمعرفة أسرارها ويسر لكم العمل بها كما فعل بأوليائه وأصفيائه وأهل طاعته انه على ما يشاء قدير وبمنه وجوده ولطفه وكرمه وفضله ورحمته ٠

ومما نفيده من النص السابق أن هذه الرسالة وضعت لغرض مقصود اذ هي ليست للتعب والهذر وانما جرت على عادتهم في التآليف التي تكسو الحقائق ألفاظاً وعبارات واشارات أي أنها لا تخاطب مخاطبة مباشرة اذ أنها قدمت الانتقادات والتعاليم والأفكار والمعارف والمعتقدات عن طريق غير مباشر بعرض مشوق ٠٠٠ ينطوي على ما يريد اخوان الصفا أن يوصلوه ولكن ما هي المعلومات التي يريدون ايصالها ، ان هذه المعلومات موجودة ومتناثرة على صفحات الرسالة ومن خلال العرض الممتع ٠

ولعل نظرة سريعة الى هذه الرسالة تجعلنا نلخص الأهداف المتوخاة في أربعة أهداف وقد تكون هذه الأهداف أكثر وربما قراءة ثانية متأنية تأتي أكثر غنى وأوسع بعداً غير أن ما يتبدى لي في هذه العجالة ان أهدافها تنحصر فيما يلي :

١ ـ الهدف التعليمي ٠

٢ ـ الهدف النقدي الاصلاحي الأخلاقي ٠

٣ ـ الهدف العقائدي ٠

٤ ـ الهدف النهائي الغائي ٠

أولا ـ الهدف التعليمي :

ـ نظرية المعرفة عند اخوان الصفا : قبل أن نتلمس الهدف التعليمي من هذه الرسالة لا بد من أن نبحث نظرية المعرفة عند اخوان الصفا ويمكن أن نقف على نظرية المعرفة عند اخوان الصفا من خلال النص التالي ـ ص ٣٩٦ طبعة دار صادر ـ اعلم أيها الأخ البار أنه لما فرغنا من تركيب جسد الانسان وبيان أن الانسان عالم صغير وأن بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة وان نفسه تشبه ملكاً في تلك المدينة فنريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة طرفاً من المعلومات فنقول :



ان علم الانسان بالمعلومات يكون من ثلاثة طرق : أحدها طريق الحواس الخمس الذي هو أول الطرق ويكون جمهور علم الانسان ويكون معرفته بها من أول الصبا ويشترك الناس كلهم فيها وتشاركهم الحيوانات ، والثاني طريق العقل الذي ينفصل به الانسان دون سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ ، والثالث طريق البرهان الذي ينفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس وتكون معرفتهم بها بعد النظر في الرياضيات الهندسية والمنطقية ·

ويشير هذا النص الى أن المعرفة تتحصل بثلاثة طرق حسب مرتبة الانسان من التحصيل والعمر فهي معرفة عن طريق العقل ولكن بعد البلوغ ومعرفة عن طريق البرهان ولا تتأتى هذه المعرفة الأخيرة الالمن حذق أذواق هذه المعرفة · ومن الطريف في الأمر ان اخوان الصفا قدموا المعرفة للبالغين في هذه الرسالة عن طريق اطار تشويقي ترغيبي أشبه ما يكون بالحوار القصصي فهم يقدمون معلومات عن بداية الخلق في فصل مستقل كما يبينون في فصل آخر فضيلة النحل وعجائب أموره وتصاريف أحواله كما يذكرون في فصل ثالث تصانيف أحوال الطيور ومن أطرف ما قرأت لهم ما يعرضونه عن دودة الدرة اذ يقولون :

وأما دودة الدرة فهي أصغر حيوان البحر بنية وألطفها جثة وأكبرها نفساً وأكثرها علماً ومعرفة وذلك أنها تكون في قعر البحر مقبلة على شأنها في طلب قوتها ، حتى اذا حان وقت من الزمان صعدت من قعر البحار الى سطح الماء في يوم المطر ، فتفتح أذنين لها شبه شفتين ينقطر فيهما من ماء المطر حبات ، فاذا علمت بذلك ضمت تلك الشفتين ضماً شديداً اشفاقاً أن يرشح فيها ماء البحر المالح ثم تنزل برفق الى قعر البحر كما كانت بدءاً وتمكث هناك منضمة على الشفتين الى أن ينضج ذلك الماء فينعقد الدر ــ وفي الصفحة ٣٦٩ يقدمون معلومات سكانية قيّمة اذ يبينون أن الربع المسكون من الأرض يحوي سبعة عشر ألف مدينة مختلفة الأمم الكثيرة العدد التي لا تعد ولا تحصى (أهل الهند وأهل الصين وأهل الزنج وأهل الحجاز وأهل اليمن ···) ·

ثانياً ــ النقد الاجتماعي ··

هي الظاهرة التي تتسم بها معظم صفحات الرسالة وأظن أن هذا النقد



موظف في غايتين احداهما ظاهرة والأخرى مستورة أي تستطيع أن تقول هو نقد ظاهري ذو خلفية ايديولوجية • وعلى كل حال فاذا أخذ هذا النقد على ظاهره فهو نقد في محله وأخلاقي يبين معايير الانسان ويمضي في سبيل التحسين والاصلاح وسوف أسوق اليك بعض الأمثلة عن هذا النقد • وهم ينقدون العلماء الذين يتفقهون في الدين وغايتهم طلب الدنيا كما ينقدون القضاة وأصحاب الدواوين وكما ينقدون التجار وأرباب النعم والأطباء والمهندسين وينقدون المجتمعات الفاسدة التي يهرب فيها الأخيار من الأشرار والمتفلسفين والطبيعيين والمنطقيين والجدليين • وغيرهم مما لا يسعنا ذكرهم في هذا المقال •

فانظر إليهم ينقدون القضاة والعدول والمزكّين « الذين سرعان ما تغيرت سلوكياتهم وأخلاقهم عقب توليتهم المنصب» في الصفحة ٣٦٠ من رسائل اخوان الصفا طبعة دار صادر بيروت ــ فيقولون ــ وأما قضاتكم وعدولكم والمزكون لكم فأدهى وأظلم وأبطر وهم أشرّ سيرة من الفراعنة والجبابرة وذلك أنك تجد الواحد منهم قبل الولاية قاعداً بالندوات في مسجده حافظاً لصلاته مقبلاً على شأنه ، يمشي بين جيرانه على الأرض هوناً ، حتى اذا ولي الحكم والقضاء نراه راكباً بغلة فارهة وحماراً مصرياً يسرج ويركب ••

وفي الصفحة ٣٥٩ ــ وأما الذين ذكرتهم من الكتاب والعمال وأصحاب الدواوين وافتخرت بهم ، فهل يليق بكم الافتخار بالأشرار الذين يهتدون الى أسباب الشرور ما لا يهتدي اليه غيرهم ويصلون ما يصل اليه سواهم لدقة افهامهم وجودة تمييزهم ولطف مكايدهم وطول ألسنتهم ونفاذ خطابهم في كتبهم •

وينتقدون التجار من الصفحة ٣٥٨ فيقولون ــ وأما تجاركم فيجمعون من حرام ومن حلال ويبنون الدكاكين والخانات ويملؤونها من الأمتعة ويحتكرونها ويضيقون بها على أنفسهم وجيرانهم وأحبابهم ويمنعون الفقراء والمساكين حقوقهم ، ولا ينفقون حتى تذهب جملة واحدة أما في حرق أو غرق أو سرقة أو مصادرة أو قطع طريق وما شاكل ذلك ، ويبقى هو بحزنه ومصيبته معاقباً بما كسبت يداه ، فلا زكاة أخرج ولا صدقة أعطى ولا يتيماً برّ ولا معروفاً لضعيف أسدى ولا صلة لذي رحم ولا احساناً الى صديق ولا تزود للمعاد ولا قدم لآخرة •



ولعل هذا النص من أثمن ما نقع عليه من وصف للحالة الاجتماعية المتردية التي يعاني منها المجتمع في أيامهم • وقد يظهر هذا النص بعداً اجتماعياً اصلاحياً ودوراً ريادياً في هذا الصدد قوامه رفض هذا الواقع واقامة واقع جديد يمتاز بنسيج اجتماعي صاف ومتآلف غير متنافر تسود فيه أفكارهم ويؤهل لظهور الصفوة التي تحتل عندهم المكان الأسمى والأرفع•

ثالثاً ـ الهدف العقائدي ••

وأظن أن هذا الجانب هو أهم هدف قصد اليه اخوان الصفا فهم يتعرضون الى جميع ما عرضوا له بهدف التمهيد والتهيئة لقبول أفكارهم ومعتقداتهم ولست مستعداً استعداداً كافياً للخوض في هذا الجانب غير أنني سوف أتعرض الى بعض الأفكار الغنوصية (الأفكار الاشراقية) التي ظهرت في كتاباتهم وانتشرت بين سطورهم ، ومنها :

١ ـ العالم الأصغر •

٢ ـ خليفة الله في الأرض •

٣ ـ وحدة الأديان •

أ ـ العالم الأصغر :

لقد بين اخوان الصفا أن الانسان عالم صغير فقالوا لما فرغنا من تركيب جسد الانسان وبيان أن الانسان عالم صغير وأن بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة •

ب ـ الانسان خليفة الله في الأرض :

وفي الصفحة ٣٤٣ وتحت عنوان ـ خليفة الله في الأرض ـ بين اخوان الصفا أن النفس الانسانية الكلية هي خليفة الله في أرضه وهي التي قرنت بجسد آدم لما خلق من التراب وسجدت له الملائكة كلهم أجمعون •

ج ـ وحدة الأديان :

أما وحدة الأديان ـ فيمكن الوقوف عليها مما هو منشور في الصفحة ٣٦٧ من طبعة دار صادر على لسان الأنس الفارس الذي يمثل في المحكمة أمام



بيراسيت الحكيم ملك الجان اذ يقول ـ فقال الأنس الفارس : نحن أيضاً كذلك إن ربنا واحد ، وإلهنا وخالقنا ورازقنا واحد ومحيينا ومميتنا واحد لا شريك له ٠

فقال الملك فلم تختلفون في الآراء والمذاهب والديانات والرب واحد ؟ قال لأن الديانات والآراء والمذاهب انما هي طرق ومسالك ومحاريب ووسائل والمقصود واحد ، من أي الجهات توجهنا فثم وجه الله ٠ ما أشبه هذا الكلام بقصيدة محيي الدين بن عربي التي تقول بوحدة الأديان ، التي جاء فيها :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان وديراً لرهبان

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

ولعل ذلك يتوضح أيضاً من صفات العالم الخبير الفاضل ٠ الذي اكتسب الحكم للأنس من ملك الجن ـ ص ٣٧٦ ـ ٠

رابعاً ـ وأخيراً ـ صعود الانسان الى عالم الأفلاك ٠٠

وهي غاية الانسان عندهم حيث مراتب الموجودات آخذ بعضها برقاب بعض فأفق كل جنس متصل بأدنى مرتبة من الجنس الذي يليه وهكذا ٠ فعندما يتحلى الانسان بجميع ما تقتضيه المثل العليا فانه يصعد الى المرتبة العليا وهي مرتبة الأفلاك ٠

ولا يتمتع بذلك الا الخواص من الحكماء الذين هم الراسخون في العلم فهم لا يحتاجون الى زيادة بيان ٠ هم مطلعون على جميع الأسرار والرموز ، لأن أكثر كلام الله تعالى كما يعتقدون وكلام أنبيائه وأقاويل الحكماء رموز لسر من الأسرار مخفي عن الأشرار وما يعلمها الا الله والراسخون في العلم ٠

□ حاشية :

المراد عندنا بوحدة الأديان وبالدين الواحد هو أن التعليم الالهي أصله واحد تنزل من الله جل وعلا على الأنبياء في مختلف العصور ولدى متباين الأقوام ٠

فالشرائع الالهية في أصولها الصافية صحيحة ٠ لكل شريعة عصرها المناسب وقومها الذين كلفوا الايمان بها والتزامها ٠ ثم جاء الاسلام فصدق أصول تلك الشرائع وما فيها من تعليم الهي وصان هذا التعليم الالهي وأكمله وختمه ٠ فمن يدين به يؤمن بجوهر التعليم الالهي في الشرائع التي سبقته ولا يلغيها بل يؤكدها ٠ ولكنه يطلب الايمان بكمال ذلك التعليم الالهي الذي جاء به هو واحتواه رحمة للانسانية جمعاء وعلى مر العصور ٠

(ع٠ ك٠ ي)